المَدْرَسَةُ .. مَاضٍ وَحَاضِر

أمل قطّاوي

طالما راودتني أسئلة كثيرة عن مدرستي؛ ذلك المكان الذي كان دوره وعلائقه معي تختلف باختلاف نموي الفكري، وتطور أسئلتي عن هدفه وشكله ومسماه، ودوره، فالأسئلة التي كانت تلح علي وأنا طالبة لها طابع مختلف، وذلك لوعيي بدوري في هذه المرحلة، ودورها الأكبر في صياغة أسئلتي. ولكن عندما أصبحت معلمة اختلف الدور، واختلفت الأسئلة، واختلف المنظار، فمن أسئلة -أو بالأحرى تساؤلات- إلى أسئلة ملحة دائمة، تبحث عن إجابات مرة ترضيني، وأخرى تبقيني حائرة، ولكنها حملتني عبئاً كبيراً لما هو دوري؟ كيف سأكون الإنسان المؤثر في طلابه أكثر؟ كيف لي أن أخلق التفاعل مع الجميع لأمرر فكرة آمنت بها أو تجربة أود خوضها؟ هل لي ولبقية زميلاتي الدور الفاعل الذي يجعل إعدادنا لهؤلاء الطلاب ينسجم مع رغباتهم وتطلعاتهم وقيمهم؟ كيف لنا أن نجسر الهوة بين ما يعتقد عن دور المدرسة وبين ما يمارس في الحياة؟ كل هذه الأسئلة وغيرها كانت تطاردني، ولكن المهمة الجديدة التي أوكلت إلي لأكون معلمة باحثة في إحدى المدارس، التي كانت أصلاً مدرستي في المرحلة الثانوية، جعلتني أفكر وأتحدى ذاتي من خلال هذا العمل. وأكثر ما أقلقني: هل سأتمكن من أن أكون موضوعية في بحثي؟ هل سأستطيع الفرار من تعلقي الشديد بمدرستي دون عقد مقارنات مع هذه المدرسة؟ بيني وبين زملائي المعلمين في مدرسة البحث.

أصبح الآن همي أن أحقق الهدف البحثي، فعدت إلى ذاتي لأراجع أفكاري عن دور الباحث، فالباحث في نظري هو من يبحث عن الحقيقة، تلك الحقيقة المرتبطة بحياة الناس الواصلة إلى إدارة المعرفة مدعمة بأفكار باحث ذي بصر وبصيرة، يجمع القول ويحوله لفعل، وثم إلى رؤيا لإحداث تغيير. وهنا كان لي دور الباحث الخطر، لأنه يعمل على تسليط الضوء على فكرة ما، ويدرس الأشياء من منظار مختلف، وأن البحث ما هو إلا عملية بناء للمعاني بشكل دائم. كل هذا العبء وعبء الأسئلة القلقة لي كمعلمة، إضافة إلى عبء دور الباحث، كانت معي وحملتها إلى (عينة الدراسة)، وكوني معلمة، لكن ليس في ظروف مشابهة (لعينة الدراسة) رفع عندي أحياناً درجة القلق والمخاوف، وجعلني باستمرار أحارب المقارنة بين (نموذج) بالنسبة لي هو الأفضل، وبين واقع هذه المدرسة (عينة الدراسة)، وبين ما أصبح لي الأفضل من علاقات ونظام وممارسات تكونت عبر رحلتي الطويلة التي أتاحت لي فرصة التكون المهني المستمر، والتي جعلتني أهدم نموذجاً لأبني آخر هو الأنسب والأفضل(عبر تعلمي الدراما في التعليم)؛ مثلاً جعلتني أهدم نموذجي (المثالي في نظر المشرفين وإدارة مدرستي)، لأعيد بناء هذا النموذج من جديد، مستخدمة بعض الحجارة، وقد غيرت مكان بعضها، وتخلصت من

البعض الآخر. وأرى ذاتي دائماً في ذاتي، لأعيد بناء ذاتي وشخصي من جديد.

بدء العمل

عندما وقع الاختيار عليّ لأقوم بالدراسة في مدرستي القديمة، أيقظ ذلك في مشاعر، ولكن معرفتي ببعض العاملين فيها من إدارة، ومعلمين، وأولياء أمور، جعلتني أكثر اطمئناناً، ولكن القلق عاود يساورني لجهلي بكثير من الأمور والتعليمات في السلك الحكومي وهرمية السلطة، وكل القوانين الخاصة بها. فاليوم الأول، وبخاصة أنني فضلت أن أصل المدرسة مشياً على الأقدام كما أعتدت وأنا طالبة، جعلني أعيد ترتيب (أوراقي) كيف سأبدأ؟ وكيف سيكون الرد والاستقبال؟ وكيف سأحاول قدر المستطاع أن يفهم المشاركون دوري ودورة بناء الثقة؟ كان لدور المديرة والترحيب بالموضوع أكبر الأثر في نفسي، فهي قد أراحتني لإيصال الفكرة، واجتمعت مع المعلمات، وأوضحت دوري وهدفي. البعض كان مرحباً ومسانداً للفكرة، والبعض الآخر بدأ بتساؤلات: هل هذا البحث سيغير أم سيبقى كالأبحاث السابقة؟ والبعض قد بدت عليه السعادة لأنه ليس من الفريق (المفحوص)، لأن البحث اهتم أكثر بالمواد الدراسية الرئيسية.

عدت إلى المنزل بعد هذا اليوم ولدي إصرار أكبر وثقة أعلى بدوري وقدرتي على مواصلة المشوار، مشوار البحث للخروج بنتائج مميزة. ولكن، كان لدي سؤال لحوح: هل طالبات هذه المدرسة يعتبرن المدرسة بيتهن الثاني أم أن لديهن مشاعر من عدم الانتماء لها، لأنني لم أرَ أن هذه المدرسة علمتني ما يفيدنا في الحياة، لقد كان هناك هوة بين ما نتعلمه وبين ما نصبو إليه، تمنيت أن أهداف المؤسسة كرسالتها (انتماء .. إبداع .. تطور) أهداف تحس بها الطالبات، بل يشاركن في رسمها.

عود على بدء

خلال تحضير أدوات البحث من كاميرا، ومسجل... الخ، عصفت برأسي أسئلة كثيرة، وبخاصة أنني ما زلت معلمة وأعرف دور أي زائر لغرفة الصف، ماذا لو كنت أنا المعلم المبحوث؟ كيف سأتجاوب مع الباحث؟ ماذا يريد أن يرى؟ وهل يفحص قدرتي وكفاءتي، أم إدارة الصف وضبطه، أم تجاوب الطلاب معي ونصيبهم في المشاركة، أم طرح الأسئلة ... ؟

تنقلات ومحطات عديدة قد أخذتني معها. جعلتني أعيد فهم دوري ودور الآخر، وقدر الإمكان أن لا يكون لوجودي تأثير على المعلمة أو الطلاب أو كليهما. ولكنني اتخذت قراري بأن أمارس عملي وأحاول فهم وتحليل أمور بعضها واضح لي كمسلمات، والبعض الآخر بحاجة إلى تحليل أكبر وفهم أعمق.

فعدت لذاتي؛ كيف كنت معلماً مبتدئاً يتخبط أحياناً، ويسير بثقة أحياناً أخرى. ولكنني أمام كبريائي كنت دائماً أعلن فهمي لدوري ولممارساتي وعقائدي (وأبررها) ولدور المدرسة، ولتقصير أولياء الأمور. كنت أحاول في بداية عملي أن أقلد نموذج معلمة أحببتها، وكان لها السبب الأكبر في كوني معلمة. أقلد التزامها بالوقت، والشرح المفصل للمنهاج، والتزامها بما يتطلب منها، وبخاصة أنني كنت منذ الصف السابع عضواً في مجلس الطلبة، كثيراً ما نحضر اجتماعات المعلمين، وما يطلب منهم، ومدى التزامهم بذلك.

وعندما عملت في مدرسة لها شأنها، جعلني ذلك أكثر انضباطاً وأكثر رغبة في التغيير، وبخاصة أن المشرفة على المادة التي أدرسها هي مديرة المدرسة ذاتها. حرصت منذ البداية أن أكون المعلمة المتميزة بعطائها وليونتها وتعاطيها المرن مع الطالبات. في أول اجتماع فردي معها سمعت إطراءً كبيراً منها بالتزامي في موعد الحصة، والاستراحة، والمناوبة، والعطاء اللا محدود على الرغم من أنها لم تبخل منذ البداية على وضع ملاحظات كانت دائماً إيجابية وتشجيعية على دفتر التحضير، وبخاصة أنها تشاهده مرة كل أسبوع، وهي المشرفة على الأسئلة، وتصحيح الامتحانات، وهي الممثل الأعلى للمعلمين والمعلمات ولأولياء الأمور، وبخاصة أنها كانت معلمة متميزة للغة العربية قبل أن تكون مديرة. هذا الإطراء أشبع غروري، لأنه أتى من إنسانة لها باع طويل في التربية والتعليم، والجميع يشهد أنها من أهم، بل أهم رواد التربية والتعليم في القدس.

أولياء الأمور دائماً كانوا يبدون ارتياحهم عند وصول بناتهم عندي، وهذا جعلني دائماً أحمل عبء مسؤولية كبرى ورغبة في التجديد والتغيير. وكان هناك سؤال يطاردني باستمرار: هل أنا حقاً معلمة ناجحة؟ هل أنا عند حسن ظنهم؟ ماذا يريدون لبناتهم؟ هل أنا قادرة على تحقيق تطلعاتهم وآمالهم ورغباتهم؟ كنت أسمع من زميلاتي اللواتي يشاركن هؤلاء الأولياء مناسباتهم وأفراحهم وأتراحهم أنني قديرة، وأنني مثال للمعلمة المعطاءة المنتمية.

من عبء كل الماضي بدأت أعيد النظر في دوري، بل أحاول أن أفكك ممارساتي وأضعها تحت المجهر. بدأت أشاهد نفسي جيداً في مرآتي ومرآة غيري. دفعني كل هذا للبحث عن الجديد في العلوم التربوية، وعما يساعدني في تحقيق تعلم ذي معنى، فبدأت بحضور دورات وورش بعضها قاد إلى الآخر، ولكنني في نهاية كل دورة أو ورشة على الرغم من الفائدة العظيمة والمعرفة الجديدة بعد حين قصير، أجد نفسي ما زلت ظمأى.

عاودت بناء ذاتي وإعادة فهمي لدوري، ولا أخفي أن عملي، وحتى

اللحظة، قلق دائم يطاردني، فأنا دائمة التفكير بطلابي في السيارة، وفي المطبخ، وفي كل شيء، لكن المساحة الكبيرة التي أتاحتها لي مدرستي بالتجديد والتغيير والتجريب كانت ترضيني وتخفف عني هذا العبء، لكنني ما زلت أتساءل: هل حققت ما أريد؟ وهل أرغب في المزيد؟ هل هناك تفاصيل تجاوزتها وهي بحاجة إلى مساءلة أو فهمها أو تحليلها؟

في ما مضى كنت باستمرار أراقب الآخرين، وكثيراً ما كان ذلك من بعد أو من مكان عل. جاء البحث ليجعلني أراقب وأدون وألاحظ وأحلل، لكن هذه المرة مختلفة عما سبقها، كانت مراقبتي لي، وتحليلاتي لي، وكثيراً ما كنت أقارن دون أن أبحث عن السبب، لكن دوري الآن مختلف، معلم باحث دور يحمل في ثناياه سلطة الباحث وتفرده في تدوين وتحليل ما يشاء، فالمعلم مرة يكون متسائلاً، وأخرى متعاطفاً مع زميله، وثالثة محايداً.

دور يختلط أحياناً علي، فكيف لي أن استمع لآهات وأنات الآخر دون حضوري؟ كيف لي أن أبعد عن دور المرشد الذي يرى أن هناك صواباً وخطأ لا وجود لشيء ثالث محتمل التجريب والنقد؟ علمني هذا الدور الصمت؛ الصمت لفهم الآخر وتوضيح وجهات النظر، بل علمني ضرورة مراقبة انفعالاتي وإيماءات الجسد، كي لا تكون رسالة غير التي أريدها. رسالة مليئة بالتأكيد، أو مليئة بالرفض أو التساؤلات.

دور معلم باحث يعمل في مؤسسة خاصة، هو دور صعب، ولكنه علمني الكثير، علمني أن أفهم الآخر وظروفه وهمومه، وبخاصة أنني بعيدة عن العمل الحكومي وهمومه اليومية. علمني أن أعطي الآخرين بعض معارفي وأشاركهم فيها. وأقول بعض معارفي كي لا أظهر بدور المشرف أو الواعظ، شاركت في إعطاء حصص تقوم على الدراما في التعليم. اقتربت أكثر من زميلاتي ومن طالباتهن.

وكلما زادت الأيام التي أذهب فيها إلى المدرسة (عينة الدراسة)، اقتربت من زميلاتي وزادت الثقة بيننا، فأصبحت أشاركهن الاستراحة والحديث عن هموم الطالبات وهموم المعلمين، فكثيراً ما كان الحديث هو عن الطلاب والمدرسة، وبعض الأشياء، والتعليمات الصادرة عن وزارة التربية. في أحد الأيام كان فحوى الحديث عن كتاب التربية الذي يطلب فيه من المدير تسجيل أسماء المعلمين الأكثر التزاماً في الطابور الصباحي، وكان الحديث عن الاهتمام بالشكليات وليس الجوهر. وبعد فترة وجيزة أطلعتني بعض المعلمات على الشكر الخاص من المديرية بالالتزام، بينما كانت إحداهن مستاءة لعدم حصولها، وكانت إحداهن السبب فيما حدث. يوم بعد يوم وهم بعد الآخر زاد تعاطفي وتفهمي لهموم المعلم، رأيت نفسي جزءاً من هذا الميدان، ولكن في الوقت ذاته، دق ناقوس الخطر، علي أن أفصل بين كوني معلماً وبين كوني باحثاً يبحث في موضوع نتائجه ستكون لها الأثر في إعادة صياغة الأهداف وإحداث التغيير، معلم يفصل بين التعاطف والنزاهة في هذه المرحلة بالذات. زاد تفهمي لممارسات كنت أتفاجأ بها، وأصبح لدي المزيد من الأسئلة التي أود طرحها، لكن على المسؤولين في التربية حسب السلم الهرمي للوظيفة.

كلما تقدم البحث خطوة، كانت لي الرغبة في الاستمرار مدة أكثر لمعرفة المزيد ووضع النقاط على الحروف، البحث في مراحله النهائية، وأنا أجد نفسي بحاجة إلى وقت أكبر، بل وجهد أكثر لتسليط الضوء على قضايا ربما هي خاصة في عينة الدراسة، أو عامة لكل العينة، فالكم الهائل من التساؤلات ما زال يتوالد على الرغم من الحصول على الكثير من التفسيرات.

في هذا البحث أقلقني -بل أخافني- تقييم الطالبات لمعلماتهن، وبخاصة أنه بعد المقابلة وجدت صحة لهذا التقييم، ولكنني أصر الآن على دور الطلاب في تقييم مدرستهم، وبخاصة أن الطلاب يلحظون ويراكمون أشياء، ويقوم بها المعلم عن قصد أو غير قصد.

المدرسة وبعض ما شاهدت فيها

ما سأتحدث عنه الآن ليس انتقاصاً من قدر المدرسة أو العاملين عليها، ولكن الهدف منه هو رصد الواقع وكتابة بعض التأملات عنه. تقع المدرسة في الجانب الغربي من القرية، وفي فترة ما عمل القائمون على المدرسة على وضع سلك شائك. تدخل المدرسة من البوابة الرئيسية ثم تنزل إلى ساحة غير مغطاة معبدة تصطف فيها الطالبات ويمضين فيها وقت الاستراحة، وهي مخصصة للعبة السلة، وفيها يتم تخريج طالبات المدرسة. ثم تنزل بضع درجات فتقابلك غرفة الإدارة وعلى يسارها غرفة المائدة وعلى يمينها حمامات المعلمات. المدرسة مكونة من ثلاثة طوابق، السفلى منها للمختبرات وقاعة صغيرة للاجتماع، والغرفة الدافئة والنادي الذي تشكل هذا العام وتم افتتاحه في 04/29، وحمامات الطالبات، أما الطابق الثاني فيوجد فيه مبنى الإدارة وغرفة المعلمات وصفوف التوجيهي بفرعية الأدبي والعلمي وغرفة المرشدة، وفي الطابق الثالث الصف العاشر وقسم من المختبرات والمكتبة ومختبر الحاسوب.

وترى عند دخولك المدرسة مقصفاً صغيراً تصطف أمامه الطالبات لشراء بعض السكاكر والعصائر أو الساندويتشات. وعلى جدران ساحة المدرسة هنالك رسومات جميلة، أما في ممراتها فكان العمل على قدم وساق لتزيينها بالتعاون مع إحدى مؤسسات المجتمع المحلي، أثناء البحث لافتتاح الغرفة الدافئة.

تبدو الطالبات فيها وكأن على رؤوسهن الطير عند قرع جرس

الطابور الصباحي، فالطابور يبدأ برفع سارية العلم، والسلام الوطني، ثم كلمات الصباح. تبدو الطالبات مثقلات بهذا السلام وكأنهن مجبرات عن الصمت، وخلال هذا النشيد تسمع صراخ بل تعليق المعلمات حول عدم الالتزام، ثم يبدأ التفتيش عن الزيّ المدرسي.

تقول إحدى الطالبات عن المدرسة:
المدرسة بالنسبة لهن مكان يعبرن فيها الحياة، مكان لتكوين الصداقات والمشاركة في الأفراح، مكان يجدن تفهماً لدى الصديقات والزميلات ولا يجدن ذلك مع المعلمات إلا قلة وقد ذكرن بالأسماء.

» الباحثة: هل تجدين معنى لوجودك في المدرسة؟
» الطالبة: معنى جوهري هي اللي بتخليني أفوت على حياة جديدة.

وفي لقائي مع الطالبات سألتهن أسئلة، منها:
ماذا حققت لك المدرسة؟

» الطالبة (م): السعادة، كمان الحزن، أكيد بكون لها أثر في بناء شخصيتي.

المدرسة لهؤلاء الطالبات مكان يبني الشخصية ويحقق أشياء لم يحققها المنهاج، أو لم يلتفت إليها المنهاج. فهن يرينه أنه منهاج محشو ومكثف ولا يراعي الفروق الفردية، وهذا رأي ليس مقتصراً على الطلاب والطالبات.

» الباحثة: ما رأيك في المنهاج؟
» طالبة: ثقيل على مستوى الإدراك.
» أخرى: لا يراعي المستويات.
» ثالثة: أنا بأخذ مادة بتاخذها أختي في الجامعة مقابل طلاب صف سادس.

وعند سؤال كل من المعلمين والمدير والمشرف عن المنهاج، فإن إجاباتهم لم تختلف عن إجابات الطالبات.

» الباحثة: ما رأيك في المنهاج الفلسطيني؟
» معلمة: مكتظ ولا مجال لحل الأسئلة.
» ثانية: يركز على الحشو ولا يلائم الوضع القائم.
» ثالثة: بحاجة إلى حصص أكثر، أو إلى إعادة ترتيب وتنسيق الحصص.
» المشرف: يعكس فلسفة المجتمع الفلسطيني، يراعى الخصوصية الفلسطينية، ولكن الطلاب بيقولوا إنه أعلى من مستواهم.

عدت إلى الوراء ما يقارب عقدين من الزمن عندما كان المنهاج أردنياً، وكان المعلمون دائماً متحاملين على المنهاج، ولكن مبررهم الوحيد بل القوي أنه أردني، وإن شاء الله تصبح لنا دولة ونضع فيها منهاجاً يناسبنا. جاء الزمن الذي بدا لمعلمي مستحيلاً أو ورديا، ولكنه لم يحقق لطلابنا ما يتوقون إليه. ترى ما مبررنا نحن معلميهم والمناهج فلسطينية من صنع خبراء في المجال الأكاديمي، ليت ذلك هو الهم، بل أضيفت هموم أخرى وهي الامتحانات بمختلف أنواعها الوزارية، والوطنية، والدولية، التي من خلالها يحكم الخبراء على صلاحية المعلمين ووسائلهم، والطلاب يقرون وضعنا في أدنى السلم لدول العالم. دون الأخذ بعين الاعتبار أموراً عدة، فالطالب والمدير والمشرف والمعلم يرى في هذه الامتحانات أنها داء وليس دواء.

» الباحثة: ما رأيك في الامتحانات الوزارية أو الوطنية أو (Timms).
» المعلم: لا تناسب مستوى الطلاب، وفيها أخطاء في الصياغة، والمعلم قادر على تقييم طلابه أكثر من غيره.
» ثانية: تقيس قدرة الطلاب على الحفظ وتظهر الطالب الناجح أكاديمياً، وربما اجتماعياً صفر.
» ثالثة: يمكن امتحانات الأستاذ وأسئلته أفضل.

وهنا نرى أن هذه الامتحانات ما هي إلا تفريغ لمعلومات تم حفظها، وهي لم تتعدَّ المستوى الأول من سلم بلوم، فهي لم تحقق الهدف، بالإضافة إلى أنها تفرز نسخاً متكررة ليس فيها فسحة للإبداع والتطور والاستنتاج والتقويم.

» الباحث: ما رأيك في الامتحانات الوزارية؟
» المدير: امتحان (Timms) أنا ما بعرف وكأنه لم يعد للشعب الفلسطيني، ولم يراع الظروف التي يعيشها الشعب الفلسطيني وتركيزها على المعلومات بين الأسطر، ولا تراعي الفروق الفردية.

هذه الامتحانات وطرق التقييم قد بدت سوطاً على رقاب المعلمين يلوحون به لطلابهم، ولأجل ذلك هدف المعلم إنهاء المنهاج ليضمن أن طلابه قد مروا على جميع المقرر، وهذا يلقي بظلاله على أسلوب المعلم، فهو يرى أن التلقين هو الخلاص للالتزام بالخطة وإرضاء المشرف وتحقيق نتائج تبدو الأفضل. وهو أيضاً جعل الطلاب ينظرون إلى الكتب أنها المصدر المقدس.

» الباحثة: ما هي المصادر التي تستخدمها في التعليم؟
» طالبة: كتب طبعاً، لأننا «مقيدين»، وما عندنا أي مجال آخر.
» أخرى: يمكن الإنترنت في الجامعة.

ومن خلال المقابلات مع المعلمين والطلاب اتضح لنا فهم كل منهما لدوره حيث:

إن المعلمين يفهمون دورهم كملقنين، ودور الطلاب كمتلقين. وهذا هدر لطاقات المعلم وإبداع الطالب، فلو حرر المعلم من قيود كثيرة كالأشياء المكتوبة، وأعطى الثقة الكاملة للإبداع لتغير الحال، ولكننا نرى أن هم الكثير الالتزام بالتوافق وإرضاء المسؤولين.

هذه المدرسة، ومن خلال زياراتي، لاحظت انسجاماً كبيراً بين العاملين فيها، ورأيت أن هناك حلقة بين المعلمين والإدارة والطلاب والمجتمع المحلي، وظهر أيضاً خلال (شبكة المعلومات) التي تقاطعت مع ملاحظاتي وانطباعات الطلاب عن المعلمات. ولقد وجدت في إحداهن نموذجاً لشخصي؛ معلمة قاومت اليأس والإحباط القادم من عالم تلك المهنة وقابلته بابتسامة دائمة وحنان الأم، معلمة تشع من وجهها المحبة والابتسامة، تساءلت وما زلت أتساءل ما الذي يمنع الكل من أن يحذو حذوها؟ فهذه الابتسامة ليس الأمل والدعم، بل تنم عن رضا بالمكانة والدور والمهام، فهي تؤمن أن المحبة زهرة الحياة ورائحتها العطرة، من خلالها تشيد جسور المحبة بين طالباتها قبل أن تشرع برصف المعلومات والمعارف في طالباتها، تؤمن بأن المنهاج المدرسي على قدر كبير من الأهمية كمادة خام، ولكن الدفء هو العنصر الحيوي الآخذ بالنمو. وهنا، فإن المنهاج بهذا المزج هو درع واق لنسيج الأمة المتين وبساتين عامرة بشتى أصناف الثمر والزهر. وبهذا التفاعل والمزج، فإنها مع طالباتها ينتجن حديقة غناء.

أين وصلت؟

عبر رحلتي وترحالي في هذه المدرسة، تجاوزت ذاتي، وبخاصة أنني كثيراً ما حملت الأسرة السبب الأكبر فيما يحدث في العملية التربوية، وكان هناك من يقابلني دائماً ويقول: «إن المدرسة سبب كل شيء». هذا القول أحياناً أغضبني وأحياناً أخرى أرضى غروري، أغضبني لأنني جزء من المسؤولية، وأرضاني لأنني في الدور الأكبر في التغيير. نظرت فرأيت المسؤولين يقولون «كل شيء على ما يرام»، ويصفون من يقول الحقيقة أو بعضها بالمتشائم. لذا يسارعون لملء الوثائق بالتقارير، ويحرصون على ذلك كل الحرص.

فبعد هذا الترحال الطويل، أقول: ليس المشكلة في المدرسة، ولا في المناهج فحسب، بل هناك حلقة كانت مفقودة عمل البحث على إتمام اتصالها، ألا وهي موقف الطلاب وموقف أولياء الأمور.

وكان في الماضي كلٌّ يحمل الآخر المسؤولية، فكثيراً ما ترى الأسرة أن على المدرسة إصلاح الخلل، وكأن المدارس هي مستشفيات يمكن أن تعالج كل الأوبئة والأمراض من مختلف العاهات. وعلينا أن ندرك أن المعلمين ليسوا كالأطباء، وأن مراكز التكون المهني لم تؤهلهم لذلك.

عبر رحلة طويلة من العمل والتأمل، أعدت بناء منظومة مختلفة عما كنت فيه. كنت باستمرار أرى أن الدور الأكبر في التغيير والتطور يعود إلى المعلمة ذاتها، ولكني بعد اطلاعي على المهام الملقاة على المعلمين والمساحة الصغيرة التي يرى فيها المعلم متنفساً، خفف لدي من حدة تحميل المسؤولية لهم، وأعاد إلي التساؤل: كيف لنا أن نضع يداً بيد لمحاولة إحداث تغيير ولو طفيف لرفع معنويات المعلم ودعم مكانته ودوره؟ ولكنني لا أخفي أنني، خلال هذا البحث، تمنيت ألا أكون معلمة من خلال وعيي الكامل، وبخطورته على الجيل، وهذا البحث نقلني من تحدٍّ إلى آخر، وهو الاستمرار في العمل، ولكن بأجمل صورة ممكنة.

رحلة طويلة ممتعة وشاقة، تخللتها محطات توقفت فيها لإعادة بناء الذات من خلال ملاحظات المشرف أو المشاركين، رحلة مكللة برائحة الغار، ففيها إعادة تقييم لكل ما يخص مجتمع الدراسة، بالقدر المستطاع من الموضوعية، رحلة عمرها قصير، ولكن الفائدة منها كانت عظيمة. حلقت تساؤلات ما زالت تبحث عن جواب. طفل بحاجة إلى من يتبناه ويحسن رعايته، رحلة فيها تقاطع للزمن وتداخل الماضي بالحاضر والمستقبل، فيها إحياء لذوات كانت نماذج هامدة، وإلغاء لأشياء كانت مسلمات، فيها عودة لعود ما زالت براعمه تبشر بالأمل، رويت بعرق المعرفة والنقد البناء. فيها تسليط الضوء على جوانب ربما كانت مهملة أو منسية.

أمل قطاوي
معلمة في مدرسة الكلية الأهلية – رام الله

من الأنشطة التي تم تنفيذها في إطار بحث «صنع المعاني في المدارس الفلسطينية».